الفصل الرابع

الأخطار الخارجية التى هددت سلطنة السلاجقة

(أ) الدولة القره خطائيه

(ب) الدولة الخوارزمية

تنتمى القبائل القره خطائيه الى مجموعة من القبائل التركية المغولية(١)، وكان أفرادها يسكنون أقصى بلاد الصين ويعتنقون الوثنية ، وكانوا دائما لايستقرون فى مكان ، الى أن استقر بهم المطاف فى شمال شرق ايران أثناء عهد السلاجقة .

وقد تمركزت القبائل القره خطائيه وثبتت أقدامها فى هذه المنطقة وأسسوا دولتهم المعروفة باسم القره خطائيه سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م .

وقد اتخذوا مدينة بلاساغون(٢)عاصمةلهم ، وكان زمام الأمور فى يد ملك يطلق عليه اسم كورخان(٣).

---

(١) دونالد لير : ايران ماضيها وحاضرها ، ترجمة عبد النعيم محمد حسنين ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب المصرى ، دار الكتاب اللبنانى ، القاهرة ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص٦١ .
ورد عند ذبيح الله صفا بلفظ : (تركان الخطا) خاصة الفرع الذى ينتمى الى جنس (التونكوزى) حيث كان يسيطر على المناطق الشمالية من الصين باسم (الخطا) وقد تمكن من طرد طوائف (القرقيز) من مكانهم وانتقالهم الى سواحل مجرى نهر ينى سىء ، ثم قوى نفوذهم وقاموا بادخال طوائف (أويغور) - التى كانت مقيمة فى التركستان الصينية ، وتدين بالمذهب مانى - تحت سلطتهم . انظر تاريخ أدبيات در ايران ، جلد دوم ، ازميانه قرن پنجم تا آغاز قرن هفتم هجرى ، جاب سوم ، تهران ١٣٣٩هـ ، ج٢ ، ص٩٠،٩١ .

(٢) بلاساغون : وتلفظ بلاساغن وأشار البعض أن موقعها قرب كاشغر فى ماوراء نهر سيحون ، على حدود الصين ، ولم يرد شىء غير ذلك .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٥٣٠ .

(٣) كورخان : ورد عند ابن الأثير بلفظ كوخان يقال أنه كان جميلا حسن المنظر يلبس الحرير الصينى ، له شخصية عظيمة على أصحابه ، ولم يول أميرا على أقطاع بل كان يعطيهم من عنده خوفا من ظلمهم ، ولايقدم أميرا على أكثر من مائة فارس حتى لايتمرد عليه ، وكان ينهى أصحابه عن الظلم وعن شراب السكر ويعاقب عليه . توفى فى رجب سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م . انظر الكامل ، ج٩ ، ص٤ .
أما عند الراوندى فقد ورد بلفظ الكافر الخطا ، انظر راحة الصدور ، ص٢٦١ .
أما عند خواندمير بلفظ كورخان . انظر حبيب السير ، ج٢ ، ص٩٨ .
أما عند البندارى بلفظ الكافر الخطائى . انظر تاريخ مختصر دولة آل سلجوق ، ص١٧٩ .

لم تجد القبائل القره خطائيه مانعا أو رادعا من توسعاتهم ، حيث زادت قوتهم ونفوذهم واستطاعوا التوغل والتقدم غربا ، فبسطوا نفوذهم على المناطق المجاورة لهم ، فأخضعوا القبائل التركية المعروفة باسم القيرقيز(١)وطوائف أويغور .

وقد اشتهر اسم القبائل القره خطائيه فى تاريخ ايران فى القرن السادس الهجرى ، حيث فى عام ٥١٩هـ/١١٢٥م قامت طائفة منهم يطلق عليها (تونكوز) بالضغط على بعض طوائف الخطا مما جعلهم يتركون ممتلكاتهم ، ثم واصلوا الضغط على ناحية الغرب حتى استولوا على كاشغر والختن ، وقد اشتهروا فى التاريخ الاسلامى باسم القره خطائيين(٢).

وكانت بلاد تركستان(٣)وغيرها من بلاد ماوراء النهر خاضعة لنفوذ الملوك الخانية الأتراك(٤)وهم مسلمون وأول من اعتنق منهم الاسلام هو جدهم الأكبر شبق قراخاقان ولما مات تولى مكانه ابنه موسى(٥)، وظل الملك ينتقل بين أولاده حتى وصل الى أرسلان خان بن محمد بن سليمان بن

---

(١) عن القيرقيز واويغور ، انظر ماورد عنهم فى الحاشية رقم (١) فى الصفحة السابقة.

(٢) الذهبى : كتاب دول الاسلام ، ج٢ ، ص٥٥ ـ عبد النعيم محمد حسنين : دولة السلاجقة ، ص٩٨،٩٩ ـ حسن أحمد محمود ، وآخر : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص٦١١،٦١٢ ـ أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص١٠٦،١٠٧ .

(٣) تركستان : وتشمل بلاد كاشغر وبلاساغون وختن وطراز وغيرها مما جاورها من بلاد النهر .
انظر ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٢ ـ أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص١٠٧ .

(٤) الخانية الأتراك : وهم من نسل أفراسياب التركى ، الا أنهم مختلفون ، وكان سبب اسلام جده شبق قراخاقان أنه رأى فى منامه رجلا ينزل من السماء فقال له بالتركية مامعناه أسلم تسلم الدنيا والآخرة ، فأسلم فى منامه ، فلما أصبح أعلن اسلامه .
انظر ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٢ .

(٥) موسى بن شبق قراخان : لم أقف على ترجمة له .

داود بن بقراخان بن ابراهيم ، وهو الذى خرج عليه ملك القره خطائيه قدر خان وانتزع الملك منه . وقد طلب أرسلان خان النجدة والعون والمساعدة من السلطان سنجر ، فكان ذلك البداية الفعلية لتدخل السلاجقة تدخلا فعليا ضد القره خطائيين ، فتصدى السلطان سنجر لقدر خان وتمكن من قتله فى عام ٤٩٤هـ/١١٠٠م وأعاد الملك الى أرسلان خان(١).

وفى سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م ظهر قوم من الكفار نزلوا الى جيحون فعاثوا فيها فسادا وتخريبا ، ولما علم بذلك السلطان سنجر أرسل جيشا عظيما لحربهم فكسرهم وانتصر عليهم وقتل منهم خلقا كثيرا(٢).

وفى سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م استنجد أرسلان خان بالسلطان سنجر ـ حيث كانت تربط بينهما علاقة مصاهرة ـ لينصره مرة أخرى على قبائل القارغليه فتحرك السلطان سنجر على رأس جيش فوصل الى سمرقند لمناصرة أرسلان خان وهزم القارغليه .

ثم وصل الخبر الى السلطان سنجر فيما بعد بأن أرسلان خان قد تآمر على قتله ، وأنه أرسل جماعة من الخيالة للقيام بذلك على الرغم مما قدمه له من عون ومساعدات للتغلب على أعدائه ، وقد نجح السلطان سنجر فى القبض عليهم فاعترفوا له بالحقيقة فما كان من السلطان سنجر الا أن زحف بقواته وحاصر سمرقند وأخذ أرسلان خان أسيرا وأرسله الى بلخ حيث كانت وفاته هناك ، ثم عين السلطان سنجر مكان قلج طمغان الذى استمر فترة قصيرة الى أن مات ، ثم ولى مكانه محمود بن أرسلان خان وكان ذلك فى عام ٥٢٦هـ/١١٣٢م(٣). وقد أشرت عن ذلك فيما سبق .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٢ ـ العينى : عقد الجمان ، ج١٢ ، ورقة ٤٥ ـ أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص١٠٧،١٠٨ .

(٢) القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص١٦٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٣ ـ العينى : عقد الجمان ، ج١٢ ، ورقة ٤٥ . =

وفى سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م بدأت القبائل القره خطائيه تحركها نحو بلاد ماوراء النهر وساروا اليها وتصدى لهم محمود خان بن أرسلان خان والى سمرقند فأوقعوا به الهزيمة قرب خجند(١) فى رمضان من نفس السنة ، فعاثوا فى البلاد سلبا ونهبا وتدميرا وفسادا وظلما وأصيب أهالى البلاد بالذعر والخوف الشديد فاستنجدوا بالسلطان سنجر(٢).

وبعد الهزيمة التى لحقت بمحمود بن أرسلان خان أرسل يستنجد بالسلطان سنجر ويطلب منه نصرة المسلمين من أعداء الاسلام فجمع العسكر وانضم اليه أبو الفضل صاحب سجستان والغورى(٣) صاحب غزنة وغيرهم

= وهناك رواية ثانية عند ابن الأثير قيل ان سنجر غدر به واستضعفه فملك البلاد منه ، وأشاع عنه ذلك ليبرر موقفه واعتقد أن هذه الرواية غير واقعية والذى يجعلنا نقول ذلك هو موقف سنجر تجاه أرسلان خان حيث نراه يعفو عنه وينصره أكثر من مرة وخاصة عندما قتل سنجر قدر خان سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م وأعاد أرسلان خان الى ملكه .

(١) خجندة : هى مدينة تقع فى اقليم فرغانة على ضفة نهر سيحون ، وطولها أكثر من عرضها ، بها قلعة ومعظم أهلها يملكون سفن من أجل العبور بها فى نهر سيحون يقال انها مدينة نزهة .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٥٢٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج٥ ، ص٦٦ ـ عبد النعيم محمد حسنين : دولة السلاجقة ، ص٩٩ ـ أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص١٠٧ ـ فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ص٤٧٢ .

(٣) الغورى : هو علاء الدين حسين بن عز الدين حسين ، من أهم سلاطين الدولة الغورية ، حيث بلغت أوج العظمة فى عهده ، واتخذ فيروز كوه عاصمة له ، وقد انتصر على بهرامشاه الغزنوى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، ودخل غزنة وأهلك أهلها ، وأشعل النار فيها سبعة أيام بلياليها ، وقد لقب بجهانسوذ أى (حارق الدنيا) يقال انه كان عادلا فى رعيته أحسن الملوك سيرة ، توفى فى ربيع الآخر سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م بعد أن غادر غزنة .
انظر ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٧٤ ـ نظامى عروضى سمرقندى : جهار مقاله ص٩٤،٩٥ ـ حمد الله القزوينى : تاريخ كزيده ، ج١ ، ص٤٠٨ ـ خواندمير : حبيب السير ، ج٢ ، ص١٥٤ .

وساروا فى جيش كبير وعبروا النهر فى ذى الحجة سنة ٥٣٥هـ/١١٤١م . وشكا اليه محمود خان بن أرسلان خان من عصيان الأتراك القارغليه فقصدهم السلطان سنجر ، ولجأوا الى كورخان طالبين منه أن يشفع لهم عند السلطان سنجر ، فأرسل الى السلطان طالبا الشفاعة للقارغليه والصفح عنهم ، فلم يستجب السلطان سنجر له ، وكتب اليه يدعوه الى الاسلام ويتوعده ويتهدده وان لم يجب دعوته فسوف يقاتله ، واستعد كورخان للحرب ولقاء السلطان سنجر وانضم اليه جنود من الترك والصين والخطا استعدادا للحرب(١).

ويذكر بعض المؤرخين(٢) رواية أخرى عن سبب القتال بين كورخان والسلطان سنجر ، وهى أن السلطان سنجر خرج لقتال خوارزم شاه أتسز بن محمد وهزمه ومن ثم ولى خوارزم شاه هاربا ، غير أن ابنه أسر ثم قتل بناء على طلب السلطان سنجر ، وكان ذلك سببا فى أن يراسل خوارزم شاه الخطا يطمعهم فى البلاد ويهون عليهم أمرها ويحثهم على قصد بلاد السلطان سنجر ، فساروا فى حشد كبير ، وكذلك سار اليهم السلطان سنجر . وقد ورد عند الراوندى (٣) سبب آخر هو أن عددا من جنود السلطان سنجر وظلمهم لأهالى ولاية ماوراء النهر وقسوتهم عليهم جعل قوادهم يرسلون سرا الى كورخان يستدعونه لتنصيبه على مملكتهم وتخليصهم من ظلم جنود سنجر فأجابهم ، والتقى الجيشان فى معركة عنيفة عند قطوان(٤) بالقرب من

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٠٣ - ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص٣٩٧ - العينى : عقد الجمان ، ج١٢ ، ورقة ٤٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٢ - أبو الفدا : المختصر ، ج٣ ، ص١٥،١٦ - الحسينى : زبدة التواريخ ، ص١٨٤ - محمود فهمى المهندس : البحر الزاخر ، ج٢ ، ص٤٨ .

(٣) انظر راحة الصدور ، ص٢٦١ .

(٤) تذكر معظم المصادر أن السلطان سنجر توجه للقتال فى سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م وان موقعة قطوان كانت سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م ، ماعدا عند البندارى فى كتابه تاريخ آل سلجوق ص٢٥٤ فقد ذكر أن الموقعة كانت فى سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م .
وقطوان : قرية على بعد خمسة فراسخ من سمرقند . انظر ياقوت : معجم البلدان ج٢ ، ص٣٧٥ .

سمرقند فطاف بهم كورخان حتى جعلهم يلجؤون الى وادى درغم(١)وذلك يوم الثلاثاء الخامس من شهر صفر سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م(٢).

وكان على ميمنة السلطان سنجر الأمير قماج وعلى ميسرته صاحب سجستان أبو الفضل ، ودار القتال بين الطرفين وانتهت المعركة بهزيمة(٣) المسلمين جيش السلطان سنجر - حيث قتل وجرح منهم أعداد كبيرة تقدر بحوالى عشرة آلاف جندى ، وسار السلطان سنجر منهزما الى ترمذ ومنها الى بلخ ، وأسرت تركان خاتون زوجة السلطان سنجر والأمير قماج وصاحب سجستان وآخرون وبذلك استقرت دولة الخطأ والترك الكفار فى بلاد ماوراء النهر(٤). قولى كورخان (ابن أخى أتسز) على بخارى حاكما من قبله(٥)، مما يؤكد لنا مدى التحالف الذى يربط خوارزم شاه أتسز مع الخطأ ضد السلطان سنجر .

---

(١) لم يرد ذكر وادى درغم فى المصادر التى بين أيدينا ماعدا عند ابن الأثير فى كتابه الكامل ، ج٩ ، ص٤ . وهى من أعمال سمرقند . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٥١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٠٣ - الحسينى : زبدة التواريخ ، ص١٨٦ - النظامى العروضى : جهار مقالة ، ص١٠٧ .

(٣) ذكر حمد الله القزوينى أن سبب هزيمة سنجر ترجع الى عصيان جنوده عليه ، مما تسبب عنه هزيمته ، وخروج بلاد ماوراء النهر من تحت سيطرته . انظر تاريخ كزيده ، ج١ ، ص٤٥٩ .
أما الجوزجانى ذكر أن سبب الهزيمة راجع الى طول مدة الرفاهية التى تمتع بها الجيش ، وتعود على حياة التنعيم مما جعلته يفقد الشىء الكثير من الروح القتالية انظر طبقات ناصرى ، تعليق عبد الحى حبيبى ، الطبعة الثانية ، كابل ، ١٣٤٢هـ/ش ج١ ، ص٢٦١ .
وتركان خاتون : هى ابنة محمد خان بن أرسلان خان (صاحب ماوراء النهر) . انظر الراوندى : راحة الصدور ، ص٢٦٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٠٣ - الحسينى : زبدة التواريخ ، ص١٨٦ .

(٥) النظامى عروضى : جهار مقاله ، ص١٠٨ . أما عن (ابن أخى اتسز) سترد ترجمته فى هذا الفصل .

وقد ذكر البعض[١] أن السلطان سنجر صار يهاب الدخول معهم فى حرب ، وورد أنه صالحهم وأعطى لهم مراعى التركستان وبلاساغون فى مقابل رد زوجته واطلاق سراحها ، غير أن الأبيات التى أنشدها الشاعر الأنورى فى ديوانه تؤكد أنه استرد منهم ماأخذوه منه بالقوة . وكانت نتيجة هذه المعركة قاسية جدا على السلطان سنجر حيث أنه لم يهزم من ذى قبل ، واضطر أن يفتدى زوجته بخمسمائة ألف دينار ، وكذلك الأمير قماج بمائة ألف دينار ، أما أبو الفضل صاحب سجستان فقد أطلق كورخان سراحه بعد أن علم استيلاء أولاده على بلاده[٢].

وبعد هزيمة السلطان سنجر أرسل الى ابن أخيه السلطان مسعود يأمره بالتصرف فى الرى وأن يكون مقيما فيها بجنوده ، ربما دعت الحاجة الى استدعائه . وعندما وصل الخبر الى عباس[٣] صاحب الرى سار الى بغداد حيث قام بخدمة السلطان مسعود لكسب رضاه . ومن ثم توجه السلطان مسعود الى الرى امتثالا لأمر عمه سنجر . وقد استغل خوارزم شاه هزيمة السلطان سنجر وقصد خراسان فأعمل السلب والنهب فى أموال السلطان سنجر وقتل الأهالى الذين امتنعوا عن تسليم المدن له مثل مرو ونيسابور

---

(١) حمد الله القزوينى : تاريخ كزيده ، ص٤٥٩ ـ الجوزجانى : طبقات ناصرى ، ج١ ص٢٦٢ ـ الانورى : ديوان الانورى ، نشر سعيد نفيسى ، طبع طهران ، ١٣٣٧هـ ، ص٦٤،٦٥ .

(٢) البندارى : تاريخ مختصر دولة آل سلجوق ، ص٢٥٤ ـ الحسينى : زبدة التواريخ ، ص١٨٦ .

(٣) عباس : هو غلام من غلمان جوهر المغربى صاحب الرى ، وقد ولاه لمملوكه عباس وكان قتل جوهر بيد الباطنية عام ٥٣٤هـ/١١٤٠م سيطر عباس على البلد وقوى نفوذه وقام بأخذ الثأر لمولاه حيث فتك بالباطنية وقتل منهم مايقارب مائة ألف ويقال أنه بنى من رؤوسهم منارة وأذن عليها المؤذن . انظر الحسينى : زبدة التواريخ ، ص٢١٨ . ذكر ابن الأثير أنه من غلمان السلطان محمود ويتصف بحسن السيرة والعدل فى رعيته ، وأنه حاصر قلعة الموت ، ودخل الى قرية من قراهم فأشعل فيها النار وأحرق من فيها . قتل فى ذى القعدة سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م بالجانب الغربى من بغداد فأرسلت ابنته فحملته ودفنته بالرى . انظر الكامل ، ج٩ ، ص١٥

وغيرهما(١). ولما يمثله السلطان سنجر من قوة اسلامية عظيمة فى بلاد ماوراء النهر آنذاك فقد كانت هزيمته ضربة عنيفة لقوة الاسلام(٢).

وفى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٣م مات كورخان ملك الخطأ والترك الكفار والذى ألحق الهزيمة بالمسلمين ، وملكت بعده ابنته ولما ماتت تولت الملك زوجة كورخان ، وأصبح ماوراء النهر بيد الخطأ الى أن غلبهم وانتصر عليهم علاء الدين محمد بن خوارزم شاه صاحب خوارزم سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٨م(٣).

وقد عرف عن ملوك القره خطائيه باعطاء الأمان والحفاظ على الأسر التى حكمت قبلهم ، حيث ان بعد استيلائهم على بلاد ماوراء النهر لم يقضوا على أسرة ملوك الترك المسلمين المعروفة بالافراسيابية أو الخانية وغيرها بل جعلهم يستمرون فى عروشهم واكتفوا بأخذ الخراج منهم ونصب شحنة من قبلهم فى بلاطهم(٤).

وقد ورد عند البعض(٥)أن سلاطين القره خطائين - رغم مااشتهروا به من قوة أثناء قتالهم مع السلطان سنجر ، ورغم أنهم غير مسلمين ولم يدخلوا فى الاسلام ، الا أنهم اتصفوا فى معظم الأحيان ببعض صفات الاسلام ألا وهى صفة حسن السيرة والعدل ، وكانوا يحثون ولاتهم منذ أن حكموا بلاد ماوراء النهر على احترام الدين الاسلامى .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٢ - ابن خلدون : العبر ، ج٥ ، ص١٥ محمود فهمى المهندس : البحر الزاخر ، ج٢ ، ص٤٨ .

(٢) توماس ارنولد : الدعوة الاسلامية ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ج٣ ، ص١٨٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤ - ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص٣٩٧ ، ج٥ ، ص٦٦ . أما عند البندارى ورد أنه لم يبق من طائفة الخطائية أثر بعد سنة ٦٠٠هـ . انظر تاريخ آل دولة سلجوق ، ص٢٥٤ .

(٤) نظامى عروضى : جهار مقاله ، ص١٠٨ .

(٥) نفس المصدر السابق ، ص٣١ .

ولقد وردت عدة روايات بهذا الشأن نذكر منها أن كورخان الخطائى بعد انتصاره على السلطان سنجر فى معركة قطوان ولى أتمتكين(١) ابن أخى اتسز خوارزمشاه على بخارى ، فظلم أهلها ، فأرسلوا الى كورخان يشتكون عليه من ظلمه فكتب اليه خطابا بالفارسية على طريقة المسلمين ، يهدده ويتوعده ويزجره . فبدأ بعبارة بسم الله الرحمن الرحيم ، وأنهاه بلفظة والسلام ، وقد وضح له أن بعد المسافة لايبعده عن سخطه ورضاه .. الى أن قال وأن عليه أن يفعل ماأمر به محمد صلى الله عليه وسلم .

هذا ولم تكن الظروف المحيطة بالسلاجقة وقت وقوع موقعة قطوان فى صالحهم ، لأن السلطان سنجر سلطان السلاجقة أصابه الوهن والضعف ، حيث تضاءلت سيطرته فى بعض الأقاليم المجاورة نتيجة لما مر به من كثرة الحروب التى خاضها من أجل المحافظة على حدود دولته وعلى هيبة السلاجقة وملكهم ، وبالرغم من أن السلطان سنجر قد وفق فى معظم الحروب التى خاضها حيث كان النصر حليفه ، الا أنها كانت سببا فى انهاك قوته .

وتعتبر موقعة قطوان بين الأتراك الخطائيين وبين السلطان سنجر والتى انتهت بهزيمة سنجر وجيشه وفراره الى ترمذ ومنها الى بلخ ، ضربة قوية وقاسية للدولة السلجوقية فهى تعتبر حدا فاصلا بين عهدين من عهد السلطان سنجر ، عهد القوة والنفوذ والانتصارات المتوالية ، وعهد الضعف والانهيار والهزيمة .

---

(١) هو : أتمتكين ابن الأمير بيابانى (وبلفظ أيضا اليتيكين) ذكر نظامى عروضى أن ضبط هذه الكلمة غير مؤكد والمحقق أن كورخان قد عهد بحكومة بخارى الى رجل اسمه شبيه بهذه الكلمة سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م بعد انتصاره فى قطوان وقد ذكر هذا فى "مختصر تاريخ بخارى" لمحمد بن زفر بن عمر الذى ألفه سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م أى بعد واقعة قطوان بثمان وثلاثين سنة .
انظر جهار مقاله (حواشى المقالة الأولى) ، ص١٠٨،١٠٩ .

وقد نتج عن هذه الهزيمة القاسية المريرة التى انهزم فيها السلطان سنجر فى معركة قطوان ـ أول هزيمة له ـ آثار سيئة للغاية حيث اعتبرت بداية النهاية لحكم سنجر . وقد ذكر البعض(١) نتائج معركة قطوان على النحو التالى :

أولا : أخضع اقليم ماوراء النهر تحت الحكم الأجنبى حيث أصبح تحت حكام وثنيين ، لأول مرة فى تاريخ المسلمين ولمدة تزيد على الستين عاما عاش المسلمون خلالها بحكم عادل ، عكس مايظن القارىء بأن خضوع المسلمين لحكم القراخطائين البوذيين كانت آثاره سيئة عليهم ، فهذه حقيقة واقعية لكل قوم يقعون تحت حكم غزاه ، مما جعل المسلمين يعمهم الرخاء والأمن والسلام ، فانتعشت حياتهم الزراعية والتجارية .

ثانيا : أصبح اقليم خوارزم تحت حكم القراخطائيين ، مما ترتب عليه أن دخل حاكمها خوارزم شاه اتسز ، تحت حكم القراخطائيين ، بل وأصبح يدفع الى خزينة كورخان مبالغ سنوية تقدر بحوالى ثلاثين ألف دينار ذهبا .

ثالثا : بداية نهاية سنجر . فقد تركت هذه المعركة آثار سيئة على السلطان سنجر ونائبه محمود خان ، حيث لم يستطع بعدها أن يعيد أراضى ماوراء النهر الى حكمه ، خلال الفترة الباقية من حياته . أما بالنسبة لمحمود خان ، فقد فقدها أيضا ، وظل أفراد أسرته يحكمون ذلك الاقليم ، تحت نفوذ وحكم القراخطائيين .

رابعا : أثر المعركة على السلطان سنجر ، من المعروف أنه لم يهزم من قبل طوال فترة حكمه . أما فى قطوان فقد اختلف الأمر ، حيث كانت أول هزيمة تلحق بجيشه بالكامل ، مما جعل بعضهم يلوذ بالفرار ، وهذا يؤكد ماأشار اليه بعض المؤرخين من أن للسكان المسلمين القاطنين فيما وراء النهر دور كبير فى النيل من حكم أمرائه الجائر ، وذلك بالتعاون مع القراخطائيين

---

(١) سعيد بن حذيفة الغامدى : معركة قطوان أسبابها ونتائجها ، مجلة العصور ، ص٩٠،٩١،٩٢،٩٣ .

ضده . كما أن هزيمته فى قطوان أعطت فرصة للغزاة الأتراك فى خراسان أن قاموا بالثورة عليه ، وكانت نهاية حكمه .

خامسا : نوعية حكم الناس المسلمين فيماوراء النهر ، لقد أظهرت معركة قطوان بوضوح نوعية حكم السلطتين السلجوقية والقراخانية لاقليم ماوراء النهر ، حيث كان الأمر يترك غالبا للأمراء ، الذين كانوا يخفون الأمن ، فلم يأمن المواطنون على أنفسهم وأهليهم وممتلكاتهم من شر حكامهم . لذلك لانستغرب لرأى بعض المؤرخين من أن هناك فئات كثيرة من السكان راسلت القراخطائيين الوثنيين للتخلص من حكم السلطتين المذكورتين أعلاه .

سادسا : علاء الدين اتسز يهاجم ممتلكات السلاجقة ، بعد أن سمع بهزيمة السلطان سنجر فى قطوان ، فقام بالتمرد عليه وغزو أراضى سيده .

سابعا : توقف المد الاسلامى شرقا ، نلاحظ عندما استولى القراخطائيين اقليم التركستان ، وماوراء النهر ، وأخضعوا خوارزم لنفوذهم ، لذلك نجد أن الاسلام أخذ يتراجع الى الغرب ، فانحسر الى مادون نهر سيحون ، ثم جاءت معركة قطوان فدحضته الى مسافة أكبر ، فجعلت حده الفاصل ماء نهر جيحون ، وبذلك لم يكن هناك حاكم مسلم فى تلك الديار يقوم بنشر الاسلام ، الى ماوراء اقليم التركستان الغربى ، وقد عاش المسلمون تحت حكم عادل طوال فترة حكم الكورخانيين الخطا ثم تعرضوا للاضطهاد والتعذيب على يد حكومة وثنية أعقبت حكومة الكورخانيين الخطا .

ويضاف الى النتائج السالفة الذكر التى أحدثتها معركة قطوان أن دولة السلاجقة فقدت السيطرة على أطرافها ، حيث كثرت الدول والامارات المستقلة حولها ، ومن أهم هذه الدول التى أحاطت بدولة السلاجقة ودخلت معها فى حروب هى ا ولة الخوارزمية (١)، والدولة الخطائية ، والدولة

---

(١) الدولة الخوارزمية : انظر الرسالة .

الغورية(١).

كما تجرأ على السلطان سنجر حكام الدولة الخوارزمية وتمردوا عليه ، وبدأ بذلك نجم السلاجقة يأفل تدريجيا حتى سقطوا على يد الدولة الخوارزمية(٢).

---

(١) الدولة الغورية : تنتسب هذه الدولة الى "الضحاك" ، يحكى انه حكم ايران فى القديم أما جدهم "شنسب" فيزعم بعض المؤرخين أنه كان معاصرا لعلى بن أبى طالب وأنه أسلم على يده وهم طائفتين : الأولى : ملوك الغور ، حكموا غور وكانت عاصمتهم فيروز كوه ، الثانية : ملوك طخارستان ، شمال غور ، وعاصمتهم باميان ، وقد حكمت هذه الأسرة نحو سبع وستين سنة (٥٤٣-٦١٢هـ/ ١١٤٨-١٢١٥م) أى بعد أن انتصروا على الغزنويين الى أن قضى عليهم الخوارزمشاهين .

انظر نظامى عروضى : جهار مقالة ، حواشى المقدمة ، ص٩٤ .

وقد حدث صدام بين الدولة الغورية بقيادة علاء الدين حسين وبين الدولة السلجوقية بقيادة السلطان سنجر وذلك عندما قام الأول بمحاصرة هراة سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م ونهبها ثم سار الى بلخ واستولى عليها ، مما دفع السلطان سنجر أن يجهز حملة لتأديبه ومنعه فسار بجيش كبير ، وتمكن من هزيمة علاء الدين وأسره ، ثم أطلق سراحه وأعاده الى بلاده .

انظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٣٣ - الجوزجانى : طبقات ناصرى ص٣٤٦،٣٤٨ .

(٢) عبد النعيم محمد حسنين : دولة السلاجقة ، ص١١٠ - حسن أحمد محمود ، وآخر : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص٦١٢،٦١٣ - أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص٥٨،٥٩ .

(ب) الدولة الخوارزمية

اتفق الجغرافيون المسلمون فى تحديد اقليم خوارزم - حيث سبق ذكره - واختلف الجغرافيون فى تبعية اقليم خوارزم فمنهم من يضمه الى ماوراء النهر والآخر يضمه الى خراسان وآخرون ذكروا أنه منفصل عن خراسان وماوراء النهر(١).

وينتسب ملوك الدولة الخوارزمية (٢)الى عبد تركى يدعى أنوشتكين (٣)كان مملوكا لرجل من غرجستان(٤)، وقد اشتراه أحد الملوك السلاجقة حيث عمل ساقيا للسلطان ملكشاه ، ونظرا لما ظهر من أنوشتكين من كفاءة وحسن أداء العمل فقد فتح أمامه أبواب الترقى والوصول الى

---

(١) نافع توفيق العبود : الدولة الخوارزمية ، ص١٧ .

(٢) نشأت هذه الدولة منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وفى عصر محمود الغزنوى عين حاكما عليها أحد حجابه ويدعى التونتاش لذلك فقد كانت خوارزم ولاية من ولايات الغزنويين .
انظر أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص١١٣ .

(٣) أنوشتيكن : هو أنوشتكين غرجه ، كان غلاما تركيا مملوكا لبلكاتكين غلام ملكشاه فى غرجستان . وقد تقلب فى عدة مناصب فى عهد السلطان ملكشاه ، منها تقلده طشت دار فى البلاط ثم أسندت اليه وظيفة الشحنة فى خوارزم باعتبارها تابعة لوظيفة الطشت دار . وقد توفى سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م وخلف تسعة أولاد وأحفاد حكموا بعده مدة ١٣٨ سنة .
انظر خواندمير : حبيب السير ، ج٢ ، ص١٦٩ - ذبيح الله صفا : تاريخ أدبيات در ايران ج٢ ، ص٢٩ . وقد ورد اسمه عند ابن الأثير بلفظ أنوشتيكن غرشحه ، كما أنه مملوك أمير من السلجوقية اسمه بلكباك . الكامل ، ج٨ ، ص١٨٤ . أما عند زامباور بلفظ أنوشتكين غرشان . معجم الأسرات الحاكمة ، ص٣١٧ .

(٤) غرجستان : بلاد تقع فى اقليم خراسان ، قال بعضهم تكتب غالبا : غرشستان أو غرستان وكثيرا ماكان يحدث لبس فى اسمها بغورستان أى بلد الغور تقع فى شرقها وأكبر مدنها هى أبشين وشورمين ، ولايعرف موضعهما وللأسف فان صفة هذه البلاد الجبلية الواسعة لم يصلنا شىء عنها ويقال انه كان يخرج من حدودها نهر مرغاب وفيها شعاب عامرة ذات عيون وبساتين وأنهار ، وقد اشتهرت بمعادن الفضة والذهب .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص٤٥٨،٤٥٩ .

مناصب مرموقة حيث شغل وظيفة الطشت دار أى أنه كان يقوم بغسل أدوات الوضوء واكة الحمام والاباريق والطاسات والكراسى وغير ذلك من الأصناف التى فى بيت السلطان(١).

وقد جرت العادة أن يكافىء السلاجقة السقاة والحجاب والحرس الخاص بهم باقطاعات من الأراضى ، وعين أنوشتكين واليا على خوارزم من قبل السلطان السلجوقى ملكشاه فى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٦م وظل حاكما على خوارزم حتى توفى فى عام ٤٩٠هـ/١٠٩٦م(٢).

وفى نفس السنة عين السلطان بركيارق بن ملكشاه الأمير داز حبشى بن التونتاق(٣)على خراسان ليصلح من شأنها وتهدئة ماوقع فيها من الفتن بين الأتراك حيث قتل فيها أكنجى(٤)نائب خوارزم .

---

(١) النويرى : نهاية الارب فى فنون الأدب ، دار الكتب المصرية ، ج٨ ، ورقة ٢٢٥ .

(٢) عبد النعيم محمد حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص١١٥ - حسن أحمد محمود ، وآخر : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص٦١٣ - ادوارد جرانفيل براون : تاريخ الأدب فى ايران من الفردوسى الى السعدى ، ص٣٨٣،٣٨٤ .

(٣) داذ حبشى بن التونتاق : طلب من السلطان بركيارق أن يساعده فى القتال ضد الملك سنجر حيث يريد الاستيلاء على بلاده ، فاستجاب بركيارق لطلبه فسار اليه فى ألف فارس واشتبك الأخوان فى معركة انتهت بهزيمة بركيارق وهروب داذ حبشى الى بعض القرى ، فاستطاع بعض التركمان القبض عليه وقد بذل مائةألف دينار مقابل اطلاق سراحه ، فلم يقبلوا بذلك فحمل الى سنجر ، وقام بقتله الأمير برغش سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م .
انظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص١٩٤ - الحسينى : زبدة التواريخ ، ص١٧٧-١٧٨ .

(٤) اكنجى : اسمه الأمير اكنجى بن قجقار ولاه السلطان بركيارق ولاية خوارزم ولقبه ، خوارزمشاه ، جهز جيشه من عشرة آلاف فارس ليلحق بالسلطان الى العراق فتقدم جيشه بثلثمائة فارس الى مرو ،وتشاغل بالشرب ، فاستغل الأمير قودن ويارقطاش ذلك واتفقا على قتله فجمعا خمسمائة فارس وهاجموه فجأة وقتلوه سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م ، واستوليا على خوارزم وأظهرا أن السلطان قد ولاهما عليها .
انظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص١٨٣ .

ولما وصل داز الحبشى الى خراسان عين قطب الدين محمد بن أنوشتكين واليا على خوارزم ولقبه بخوارزم شاه ، وقد وافق السلطان بركيارق على تعيين قطب الدين محمد بن أنوشتكين على خوارزم . وأخذ قطب الدين يبذل جهودا كبيرة فى ادارة شؤون اقليم خوارزم ، وقرب اليه أهل العلم والدين والصلاح ، ومن ثم عظم شأنه ، ونال منزلة عظيمة عند سلاطين السلاجقة(١).

وعندما أصبح السلطان سنجر سلطانا للسلاجقة أقره على ولاية خوارزم وأيده وعاونه وقربه اليه نظرا لكفاءته .

ومن الدلائل التى توضح معاونة السلطان سنجر لقطب الدين ضد منافسيه ومعارضيه ، أن بعض ملوك الأتراك جمعوا جموعا وقصدوا خوارزم حيث كان قطب الدين بعيدا عنها ، ولما علم بذلك توجه الى خوارزم وأرسل الى السلطان سنجر يطلب العون والمساندة ضد أعدائه ، فسار السلطان سنجر بجيشه اليه ، الا أن قطب الدين لم ينتظر جيشه اليه وسار مسرعا الى خوارزم وماكاد يقترب منها حتى أسرع الأتراك بالفرار منها وظل مدينا بالولاء والتبعية والاخلاص للسلطان سنجر ، واستمر حكمه لخوارزم أكثر من ثلاثين عاما لم يخرج فيها عن طاعة السلطان سنجر ، وكان يسعى دائما ويعمل من أجل وحدة السلاجقة وترابطهم وتماسكهم الى أن توفى فى سنة ٥٢١هـ/١١٢٦م(٢).

وبعد وفاة قطب الدين ، أسند السلطان سنجر ولاية خوارزم الى ابنه علاء الدين أتسز وذلك عرفانا منه بوفاء والده له .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص١٨٤ ـ
Howorth, History of mohgols (London, 1876) p.7 .

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج٥ ، ص١٩ ـ ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ج٢ ، ص١٨ ـ فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، قسم التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة والفنون والأدب ، الكويت ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص٤٧٣ .

وقد أبدى علاء الدين أتسز كفاءة عالية فى ادارة شؤون اقليم خوارزم واشتهر بالعلم واحسانه للرعية مما جعل الاقليم ينعم بالأمان والعدل ، وكانت الألفة والمحبة تربط بينه وبين السلطان سنجر ، وخاصة عندما تعرض سنجر لمؤامرة تستهدف قتله أثناء خروجه للصيد ، ولما وصل هذا الخبر الى علاء الدين أتسز وعلم بما يدبر لسيده ، قام باحباط المؤامرة ، ونجاه من القتل ، وأدى ذلك الى ثقة السلطان سنجر فيه أكثر فقربه اليه ، فكان بصحبته فى كثير من أسفاره وحروبه ، ونظرا لكفاءته واخلاصه أصبح من أبرز رجال السلطان سنجر(١).

وقد سار علاء الدين أتسز مع السلطان سنجر الى بلاد ماوراء النهر سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م حيث سبق ذكره ، كما سار معه أيضا فى حملته ضد فخر الدين بهرام شاه الغزنوى سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م(٢).

غير أن ماتحقق لعلاء الدين أتسز من مكانة عند السلطان سنجر آثار غيرة وحسد الأمراء ، فبدأوا يكيدون له ويدبرون له المكائد واستطاعوا أن يغيروا نظرة السلطان سنجر فيه . فلما شعر علاء الدين أتسز بذلك خشى على نفسه فجهز نفسه وأخذ يعد العدة ليستقل بخوارزم ، وحينما اطمأن الى قوته واستقرار نفوذه وجد الوقت قد حان لأنه يستقل بدولته استقلالا تاما عن السلاجقة ، وبدأ فى اظهار البغضاء والعداء والمخالفة للسلطان سنجر بقدر ماكان يظهر له من ولاء وطاعة .

وازداد تدهور العلاقات بينهما يوما بعد يوم الى أن أعلن علاء الدين أتسز ثورته وعصيانه على السلطان سنجر سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م ، فهاجم أملاك السلاجقة التى تقع أسفل نهر جيحون وانتزعها من قبضتهم وضمها الى

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص١٨٤ - خواندمير : حبيب السير ، ج٢ ص١٦٩ .

(٢) عبد النعيم محمد حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص١١٦ - بارتولد : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ص٤٧٤ .

مناطق نفوذه ، وكان ذلك أول صدام عسكرى بين السلاجقة والخوارزميين(١).

ولم يقف السلطان سنجر مكتوف الأيدى أمام عصيان علاء الدين أتسز فجمع جيشه لتأديبه على مابدر منه من عصيان ومخالفة وليتخلص منه كى لايستفحل خطره ، فسار الى خوارزم فى محرم سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م وخرج علاء الدين أتسز لصد ومنع السلطان سنجر عن البلاد ، والتقى الفريقان بالقرب من هزاراسب(٢)واشتبكا فى معركة عنيفة انتصر فيها السلطان سنجر انتصارا كبيرا على خوارزم شاه علاء الدين أتسز ، وقتل عددا كبيرا من جنده ، غير أن علاء الدين أتسز نجح فى أن يفر وينجو بنفسه من القتل .

ويقال ان خسارة الخوارزميين فى هذه المعركة تقدر بحوالى عشرة آلاف بين قتيل وجريح(٣)وقد وقع ابن علاء الدين أتسز فى الأسر ، وانتقم السلطان سنجر من أبيه بأن أمر بقتل ابنه وقطع جسده نصفين ، وحزن علاء الدين أتسز حزنا شديدا على قتل ابنه(٤).

وبعد هذا النصر الكبير الذى حققه السلطان سنجر أسند حكم خوارزم الى ابن أخيه غياث الدين سليمان شاه بن محمد السلجوقى(٥)وقرر

---

(١) نافع توفيق العبود : الدولة الخوارزمية ، ص٢٢،٤٥ ـ أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص١١٥ .

(٢) هزاراسب : معناه بالفارسية : ألف فارس : وهى قلعة حصينة ومدينة كثيرة الماء محيطة بها كالجزيرة ، وليس لها الا طريق واحد على ممر قد عمل من نواحى خوارزم بينهما ثلاثة أيام .
انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٥ ، ص٤٠٤ .

(٣) خواندمير : حبيب السير ، ج٢ ، ص١٧٠ ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ص٣٦٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٦٤ ـ علاء الدين عطا ملك الجوينى : تاريخ جانكشاى ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩١٦ ، ج٢ ، ص٥ .

(٥) غياث الدين سليمان شاه بن محمد : أقام عند عمه سنجر فترة من الزمن وقد جعله ولى عهده ، وخطب له على منابر خراسان ، فلما انهزم سنجر من الغز ، مضى سليمان شاه الى خوارزم شاه فزوجه ابنة أخيه أتسيس ، ثم بلغه عنه =

له قواعد الملك فيها واستتبت الأمور فى الاقليم ، ثم عاد الى مرو فى جمادى الآخرة من هذه السنة .

وانتهز علاء الدين أتسز فرصة عودة السلطان سنجر الى مرو وعاد إلى خوارزم معتمدا على معاونة الأهالى له وبغضهم لجنود السلاجقة ، وبوصوله الى خوارزم لم يجد سليمان شاه بدا من أن يغادر البلاد . الا أن علاء الدين أتسز شعر بالخوف من عودة السلطان سنجر لقتاله من جديد ، فحاول أن يسترضيه ويستعطفه ويتعهد له بالطاعة والخضوع لأمره وألا يعصيه مرة أخرى ، فرضى عنه السلطان سنجر وصالحه . وسيتضح فيما بعد أن هذه المصالحة التى سعى اليها علاء الدين أتسز انما لكى يتاح له الوقت لتنظيم جنده لاستعادة قوته(١).

= مما جعله يكرهه فأبعده ، ثم جاء الى أصفهان فمنعه شحنتها من الدخول ، فمضى الى قاشان فأرسل الى الخليفة المقتفى يأذن له بدخول بغداد وجاءت الموافقة بعد أن أرسل زوجته رهينة لذلك ، فحضر سليمان شاه الى دار الخليفة وأقام ببغداد الى محرم سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م وحلف للخليفة على الموافقة ولزوم الطاعة ، وأن لايتعرض الى العراق ، مما جعل الخليفة يخطب له ببغداد ولقبه بألقاب والده غياث الدنيا والدين وخلع عليه خلع السلطنة ، فلما سمع السلطان محمد بن محمود بذلك أرسل الى صاحب الموصل يغريه بالمال الكثير اذا قبض على سليمان شاه ، وبالفعل قام بتجهيز جنوده وسار الى لقاء سليمان شاه ووقعت الحرب بينهم فى جمادى الأولى من نفس السنة وانهزم سليمان شاه وأخذ أسيرا وحمل الى قلعة الموصل وحبس بها مكرما ، وفى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م ، توجه الى همذان من أجل أن يتولى السلطنة . وقتل السلطان سليمان شاه فى ربيع الآخر سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م وسبب ذلك اختلال خلقه بشرب الخمر واستهزائه بالأمراء مما جعل كرد بازو وهو من مشايخ الخدم السلجوقية يخطط الى قتله بعد أن استهزأ به فعمل دعوة عظيمة حضرها السلطان سليمان والأمراء فلما سار السلطان سليمان الى داره قبض عليه وعلى وزيره ، فقتل وزيره وحبس سليمان شاه فى قلعة فأرسل اليه من خنقه ، وقيل سقاه سما .

انظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٨،٤٩،٧٢ .

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٦٤ - ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص٦٧ .

وبعد أن نظم علاء الدين أتسز جنده واستعاد قوته بدأ بمهاجمة ممتلكات السلاجقةمن جديد فاستولى على بخارى(١)سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م وقتل حاكمها زنكى بن على ، وزاد العداء بين الجانبين لاسيما بعد أن تحالف علاء الدين أتسز مع قبائل الخطا التركية - كما مر بنا سابقا - التى استقرت فيما وراء النهر ، وحثهم على مهاجمة ممتلكات السلاجقة . وبالفعل بدأت هذه القبائل فى شن هجماتها وغاراتها على البلاد الاسلامية فعاثوا فى البلاد سلبا ونهبا وتدميرا ، مما دفع عمال تلك البلاد الى الشكوى للسلطان سنجر الذى لم يجد مفرا من أن يتحرك لقتالهم(٢).

وفى سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م كانت هزيمة السلطان سنجر من القرة خطائيين فى موقعة قطوان وفراره الى ترمذ ومنها الى بلخ .

وانتهز خوارزم شاه علاء الدين أتسز هزيمة السلطان سنجر فى موقعة قطوان وضعف قوته لتوسيع ممتلكاته فأغار على ممتلكات السلاجقة فى خراسان وعاث فيها تخريبا وفسادا ، وقصد سرخس(٣)فى ربيع الأول من نفس السنة ومنها الى مرو حيث دخلها عنوة وقتل ونهب فيها وجلس على عرش السلطان سنجر ، واستولى على خزائن السلطان سنجر ، وسار منها الى نيسابور واستولى أيضا على أموال وممتلكات أصحاب السلطان سنجر وقطع خطبته وأمر أن تكون الخطبة باسمه ، واشتعلت نيران الفتنة وثار الناس وترتب على هذه الثورة ، أن أعيدت الخطبة باسم السلطان سنجر فى المحرم

---

(١) بخارى : مدينة كبرى تقع فى اقليم الصغد على نهر الصغد وقد اشتهرت بخصوبة تربتها .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٥٠٣-٥٠٦ .

( ) نافع توفيق العبود : الدولة الخوارزمية ، ص٢٣،٢٤ .

(٣) سرخس : مدينة تقع فى اقليم خراسان على طريق من طوس الى مرو ، على ضفة نهر المشهد اليمنى ويقال له اليوم تجند ، وقد اشتهرت فى القرن الرابع الهجرى ، بخصوبة التربة وكثرة المراعى ، وزراعة البطيخ والعنب .
انظر كى لسترنج بلدان الخلافة ، ص٤٣٧،٤٣٨ .

سنة ٥٣٧هـ/١١٤٣م ، كما أرسل علاء الدين أتسز جيشا الى بيهق(١)، وارتكب رجاله أعمالا وحشية كبيرة فيها(٢).

ولم تدم سيطرة خوارزم شاه علاء الدين أتسز على المناطق التى أخضعها لنفوذه ، ولم يتمكن من ضم أى مدينة من مدن خراسان الى ممتلكاته بسبب أن السلطان سنجر بعد أن انهزم من القره خطائيين عاد الى خراسان ، فقرر علاء الدين أتسز العودة الى خوارزم تاركا ماسلطولى عليه من بلاد خراسان(٣).

وهنا يتبين أن أعمال الخوارزميين فى خراسان كانت أعمالا تخريبية يقصد منها زعزعة دولة السلاجقة واخضاع الناس لهم .

غير أن علاء الدين أتسز أصر على عصيان الطاعة للسلطان سنجر ، منتهزا ضعف قوته بعد هزيمته فى موقعة قطوان ، فقام بتأليب البلدان الاسلامية الأخرى ضده ، وعندما وصل الخبر للسلطان سنجر أرسل لعلاء الدين أتسز يتوعده فرد عليه علاء الدين بأبيات من الشعر تؤكد اصراره على العصيان فقال فيها : "اذا كان حصان الملك سريع العدو ، فان حصانى أيضا - ليس أعرج فتعال هنا وأنا أذهب هناك ، فليس العالم ضيقا"(٤) مما جعل السلطان سنجر يعتزم الانتقام من علاء الدين أتسز لفعلته النكراء ، واصراره على العصيان فجمع جنوده وقصد خوارزم فى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٤م . ولما علم علاء الدين أتسز بذلك عمل على تقوية جنده وحشد جيشه وأصلح

---

(١) بيهق : معناها بالفارسية الأحسن والأفضل وهى ناحية كبيرة واسعة كثيرة البلدان والعمارة تشتمل على ثلثمائة واحدى وعشرين قرية ، تبعد عن نيسابور بحوالى ستين فرسخا ، وكانت قصبتها أولا خسروجرد ثم صارت سابزاور .
انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص٥٣٧، ٥٣٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤، ٥ - العينى : عقد الجمان ، ج١٢ ، ورقة ٤٦ .

(٣) نافع توفيق : الدولة الخوارزمية ، ص٢٥ .

(٤) العوفى : لباب الألباب ، ليدن ، ١٩٠٣م ، ج١ ، ص٣٧ .

حصونه استعدادا للحرب مع السلطان سنجر .

ولما وصل سنجر الى خوارزم وجد علاء الدين أتسز قد تحصن بالمدينة ولم يخرج لقتاله لأنه على يقين بعدم مقدرته لقتال السلطان سنجر ، وكان القتال يجرى بينهما من وراء الأسوار ، وقد قسم السلطان سنجر السور على أمرائه لحصار علاء الدين أتسز واشتد الحصار واستمر لمدة عشرين يوما ، وقد حاول السلطان سنجر خلالها اقناع بعض الخوارزميين الوقوف الى جانبه الا أنه لم يوفق فى ذلك فهجم الأمير سنقر(١) أحد أمراء السلطان سنجر على المدينة ، غير أن علاء الدين أتسز قوى عليه واستطاع اخراجه منها ، ولما أدرك السلطان سنجر قوة البلد وامتناعها عليه ، قرر عدم الرحيل عنها الا بعد أن يقطع فيها أمرا ، ووجد علاء الدين أتسز أنه محاصر حصارا محكما وشديدا وان قوة السلطان هى الأرجح والأكفأ ، فخشى على ضياع ملكه فأرسل الرسل الى السلطان سنجر يطلب الصلح والعفو عنه ، فوقع الصلح بينهما على أن يترك علاء الدين أتسز كل مااستولى عليه من البلاد والمدن الخراسانية أثناء انشغال السلطان سنجر بالحرب مع الخطا سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م ، وأن يرد جميع الأموال والجواهر التى استولى عليها من خزانة السلطان فى مرو ، وأن يعود الى ماكان عليه من الخضوع والطاعة والولاء للسلطان

---

(١) سنقر : هو الأمير سنقر العزيزى ، من أمراء السلطان سنجر ، تولى ولاية زنجام ، وقد انضم مع السلطان مسعود بن محمد ومعه مجموعة من الأمراء فى الحرب التى وقعت مع الأمير أتابك منكوبرس ، صاحب بلاد فارس ، فانهزم جيش منكوبوس وأسر منكوبونس ، ولما علم الأمير بوزابه ، وكان من أعظم أصحابه جهز جيشه وأقسم أن لايرجع حتى يثأر لصديقه(منكوبرس) وبالفعل هجم على مخيم السلطان مسعود ودارت الحرب بينهم فانهزم السلطان وقبض على اثنا عشر أميرا منهم الأمير سنقر فقام بوزابه بقتلهم جميعا ومن بينهم الأمير سنقر ، وقد جرت هذه المعركة فى أواخر سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م .
انظر البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص١٧١ ـ الحسينى : زبدة التواريخ ، ص٢١٣ ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٩١ .

سنجر فأجابه السلطان الى ذلك واصطلح معه ثم عاد الى مرو(١).

ويقال ان رشيد الدين الوطواط نظم شعرا بهذه المناسبة أعلن فيه عن قيام دولة علاء الدين أتسز وهذا مطلعها :

حين اعتلى الملك أتسز عرش المملكة
انتهت دولة سلجوق وآله(٢)

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٧ ـ العينى : عقد الجمان ، ج١٢ ، ورقة ٤٦ ـ الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص٩٥،٩٦ ـ رشيد الدين الوطواط : مجموعة رسائل الوطواط ، مطبعة المعارف ، مصر ١٣١٥هـ ، ج١ ، ص٩

(٢) النص الفارسى :

بلت ملك اتسز بتخت ملك برآمد
دولت سلجوق وآل ابسر آمد

انظر رشيد الدين الوطواط : حدائق السحر فى دقائق الشعر ، ترجمة ابراهيم أمين شواربى ، القاهرة ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م ، ص٨ ـ حمد المستوفى : تاريخ كزيده ، ج١ ، ص٤٨٧ ـ ذبيح الله صفا : تاريخ أدبيات در ايران ، ج٢ ، ص٣٠ .

هزيمة السلطان سنجر فى الحرب الأخيرة التى وقعت بينه وبين علاء الدين أتسز ٥٤٣هـ ورسوخ أركان الدولة الخوارزمية :

لقد اشتبك السلطان سنجر مع علاء الدين أتسز عدةمرات حيث كانت كفة السلطان هى الراجحة دائمًا ، الا أن علاء الدين أتسز كان دائمًا يخشى على ملكه ومن ثم كان يقدم الاعتذار ويطلب الصفح والعفو عنه ويظهر الطاعة والولاء للسلطان سنجر فى كل مرة يتغلب عليه السلطان ، فيقبل السلطان منه الاعتذار ويصفح عنه ويسامحه عما بدر منه ، وبصرف النظر عما يقال فى تفسير تكرر صفح السلطان عنه ، سواء كان ذلك عن طيبة نفس منه أو عن أسلوب الخداع والنفاق الذى كان يتبعه علاء الدين أتسز معه ، فمما لاشك فيه أن السلطان كان يخشى توسيع رقعة الحرب بينه وبين علاء الدين أتسز فى الوقت الذى كانت تتهدد فيه الأخطار دولته خارجيا من قبل القره خطائيين ، وداخليا من قبل الاسماعيلية .

فبعد الحرب الأخيرة التى دارت بينهما فى عام ٥٣٨هـ/١١٤٤م ، وانتهت بالصلح بينهما ، هدأت الأحوال بينهما فترة من الزمن ، استطاع علاء الدين أتسز خلالها تقوية جيشه ، ثم لم يلبث أن نقض الصلح الذى أبرم بينه وبين السلطان ، فماكان من السلطان سنجر الا أن أرسل الى علاء الدين أتسز شخصا يدعى أديب صابر(١)، وحمله رسالة يدعوه فيها الى الولاء والطاعة وينصحه بعدم سفك الدماء أو ازهاق الأرواح ، واعتقد علاء الدين أتسز أن مهمة أديب صابر مهمة تجسسية ، ومن ثم احتجزه عنده ومنعه من العودة الى السلطان سنجر .

كما دبر علاء الدين أتسز مقتل السلطان سنجر ، فاستأجر اثنين من الاسماعيلية لتنفيذ هذه المهمة ، وعلم أديب صابر بهذه المهمة فكتب رسالة الى السلطان سنجر تتضمن وصفا دقيقا للمهمة وكذلك للفدائيين المكلفين

---

(١) أديب صابر : انظر ترجمته فى الفصل السادس .

بتنفيذ المهمة ، وبعث بهذه الرسالة بصحبة امرأة عجوز أخفتها وسارت بها الى مرو حتى سلمتها الى السلطان سنجر .

ولما علم السلطان بفحوى الرسالة قبض على الرجلين الفدائيين وقام بقتلهما ، ومأأن علم علاء الدين أتسز بما حدث وتأكد أن وراء ذلك أديب صابر أمر بتقييده واغراقه فى نهر جيحون وكان ذلك حسب مايذكره المؤرخون قبيل عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م ، وغضب السلطان سنجر غضبا شديدا لقتل رسوله ، ورأى أن الحل الوحيد لما ارتكبه علاء الدين أتسز هو قتاله فجهز جيشا ، وسار الى خوارزم فى نفس السنة ، ولم يخرج علاء الدين أتسز الى لقاء السلطان سنجر بل تحصن فى هزاراسب ، فحاصره السلطان حصارا شديدا استمر شهرين ، وكان برفقة السلطان سنجر شاعره الانورى ، فطلب منه أن يقول أبياتا من الشعر فى هذا الموقف ، فنظم قائلا :

"أيها المليك ان ملك العالم رهن لاشارتك

والعالم ملك يمينك بفضل اقبال حظك ودولتك

فجد اليوم بحملة واحدة قصبة هزاراسب وقلعتا

وغدا تكون لك خوارزم ومائة شبيهة بهزاراسب

وقد كتبت هذه الأبيات على سهم وقذفت الى داخل القلعة . وكان برفقة علاء الدين أتسز داخل القلعة شاعره رشيد الدين الوطواط فأجابه بأبيات من الشعر ساخرا من السلطان سنجر قائلا :

"لو قدر وكان خصمك هو البطل رستم

فانه لن يستطيع أخذ حمار واحد من هزاراسب أومن جيادك الألف"

الا أن السلطان سنجر تمكن من الاستيلاء عليها بعدما تراجع علاء الدين أتسز أمامه وكعادته دائما بادر الى طلب الصفح والعفو من السلطان سنجر ، فوافق على الصفح عنه ، ولكنه اشترط عليه أن يحضر الى شاطىء

جيحون ليقدم خضوعه وولاءه له(١).

وفى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م خرج علاء الدين أتسز عن حدود اللياقة والأدب عند مقابلته للسلطان ، حيث أحنى رأسه دون أن يترجل عن جواده واكتفى بانحناء رأسه ، ثم رجع السلطان سنجر متأثرا بسوء تصرف علاء الدين أتسز ، غير أنه لم يجد ضرورة من قتاله مرة أخرى ، فقرر العودة الى مرو بعدما تيقن من عدم اخلاص علاء الدين أتسز فى الصلح معه(٢).

وقد سأم السلطان سنجر من تعاقب حروبه المتتالية على خوارزم واضطر الى الاعتراف بعلاء الدين أتسز حاكما مستقلا على خوارزم وبذلك انفصل عن السلاجقة ، وهنا يجعلنا نتساءل لماذا كان يعامل السلطان سنجر علاء الدين اتسز بهذه المعاملة الطيبة رغم خيانته له عدة مرات ، فى الوقت الذى كانت تسمح الفرصة للسلطان للقضاء عليه ، فكان يصفح ويعفو عنه على الدوام .

---

(١) الوطواط : حدائق السحر ، ص٨،٩ ـ حمد الله القزوينى : تاريخ كزيده ، ج١ ، ص٤٨٨،٤٨٩ .

الوطواط : نفس المصدر والصفحة ـ حمد القزوينى : نفس المصدر والصفحة .

النص الفارسى (الأنورى) :

اى شاه همه ملك زمين حسب تراست
وز دولت واقبال جهان كسب تراست
امروز بيك حملة هزاراسف لكبير
فردا خوارزم شاه وصد هزاراسب تراست

انظر الجوينى : تاريخ جهانكشاى ، ج٢ ، ص٨ ـ حمد الله القزوينى : تاريخ كزيده ، ج١ ، ص٤٨٩ .

النص الفارسى (الوطواط) :

كرث شمنت اى شاه شودرستم كردد
بك خر زهزاراسب تونتواند برد

انظر حمد الله القزوينى : تاريخ كزيده ، ج١ ، ص٤٨٩ .

(٢) عبد النعيم محمد حسين : سلاجقة ايران والعراق ، ص١١٨ ـ أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص١١٧،١١٨ ـ بارتولد : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ص٤٧٨ .

وهكـذا رسخت أركان الدولة الخوارزمية التى بدأت فى الظهـور بخطى سريعة وفى المقابل أخذت قوة سنجر تنهار ومن ثم أخذت الدولة السلجوقية فى الضعـف والانهيـار ، وبانتهـاء الصـراع بين السلطـان سنجـر وعلاء الدين أتسـز ، اتجه علاء الدين أتسز نحو التوسع فقام بعـدة حملات نتج عنها ضم بعض البقاع لنفوذه(١).

كمـا أتاح الفـرصة لدول أخرى مثـل الـدولة الغـورية أن تطمـع فى ممتلكات سنجر ومهاجمته .

---

(١) عبد النعيم محمد حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص١١٨ ـ نافع توفيق العبود : الـدولة الخوارزمية ، ص٢٨ ـ حسـن أحمد محمود ، وآخر : العـالم الاسلامـى فى العصر العباسى ، ص٦١٤،٦١٦ ـ أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقـة فى التاريخ والحضارة ، ص١١٨ .